الربح الحقيقي

زاهر بن حارث المحروقي

في السنوات الماضية زاد الحديث عن مستوى جودة التعليم في الوطن العربي، بعد أن جاءت معظم الدول العربية في المؤخرة على مستوى العالم في هذا الجانب، بعد دراسة الاتجاهات الدولية للرياضيات والعلوم؛ وقد عُقدت ندوات كثيرة في طول الوطن العربي وعرضه، إلا أنّ المشكلة ما زالت قائمة، حيث تحدثت التقاريرُ الدولية أنّ الوطن العربي هو أكبر بؤرة للأميّة في العالم، في وقت لم نر فيه الجامعات العربية ضمن أحسن ١٠٠ جامعة في العالم؛ وقد عزا تقرير لمنظمة اليونسكو المشكلة إلى تكدُّس في المناهج التعليمية والاعتماد على التلقين المستمر، وإهمال جانب التطبيق العملي لتلك المناهج؛ فيما جاء تقرير البنك الدولي عن التعليم في الوطن العربي ليؤكد أنّه متخلف مقارنةً بالمناطق الأخرى في العالم. وعلى الرغم من أنّ معظم الأطفال في العديد من الدول العربية استطاعوا الاستفادة من التعليم الإلزامي، وتقلصت الفجوة بين تعليم الجنسين، إلا أنّ الدول العربية ما زالت متخلفة عن كثير من الدول النامية في هذا المجال؛ فحسب تقرير البنك الدولي فإنّ الدول العربية خصصت ٥ بالمئة فقط من إجمالي الناتج المحلي و٢٠ بالمئة من إجمالي الإنفاق الحكومي على التعليم خلال الأربعين سنة الماضية، وهو إنفاق زهيد جداً، ومع ذلك فإنّ ثلث السكان البالغين – أي ما يعادل ٦٠ مليون شخص– ما زالوا أميّين، ثلثان منهم من النساء، هذا إذا لم نتحدث عن أمية المتعلمين، إذ يتخرج الطالب من الجامعة ورصيده من الثقافة صفر في كلِّ المجالات، لأنّ التعليم ركز من المراحل الأولى على الحفظ فقط دون التركيز على الاستيعاب، وكما هو معروفٌ فإنّ الاستيعاب يؤدي إلى الحفظ ولكن الحفظ لا يؤدى إلى الاستيعاب، فكان من نتيجة ذلك أن نرى ارتفاعاً في نسب نتائج الطلبة الخريجين من الدبلوم العالي، ولكنه أمام التعليم الجامعي الحقيقي في الجامعات العالمية نجدهم يتراجعون، ثم إننا لم نشاهد النوابغ والمبتكرين في الوطن العربي، إذ أنّ الطلبة من الجنسيات الأخرى التي سجلت دولهم ارتفاعاً في مستوى التعليم، هم من نبغوا في الابتكار وغيره. وقد قرأتُ تغريدة للدكتور خالد أبو حفاش، ربما تشرح واقع الخريجين العرب، عندما كتب: «كنا أعز أربعة أصدقاء، نجحنا ثلاثة فقط، ودخلنا الجامعة واجتهدنا، وعندما تخرجنا، اشتغلنا عند صديقنا الراسب».

لقد أثبتت تجارب بعض الدول الحيّة والناجحة أنّ التعليم الجيد هو الخطوة الأساسية الأولى نحو التقدم والرقي، لذا ركزت جهدها كله في هذا الجانب حتى لحقت بركب الحضارة والتكنولوجيا، رغم قلة مواردها، لأنها عرفت أنّ الاستثمار الحقيقي للشعب هو التركيز على تعليمه والاهتمام بتطوير التعليم عبر تطوير مناهجه وبرامجه وأنظمته والاهتمام بالمدرسين والمدارس، واهتمت هذه الدول بتأسيس لجان التطوير من الخبراء المختصين، ورصدت ميزانيات تفوق ميزانيات الجيوش، وسخّرت له كلّ الإمكانيات، فكانت النتيجة أن حققت مستويات عالية في الإنتاج، ورفعت من اقتصادياتها بفضل ذلك الاستثمار الجيد.

ونحن في السلطنة نعاني من أزمة كبيرة في هذا المجال.

ورغم أنّ الحكومة تبذل الجهود لتطوير التعليم وعقدت ندوة خاصة بهذا الشأن في أكتوبر ٢٠١٤، تحت عنوان «التعليم في سلطنة عُمان: الطريق إلى المستقبل»، إلا أنّ العقبات يبدو أنها قوية؛ فالعملية برمتها تحتاج إلى مختصين لبحث الخلل ولوضع الحلول، فالأمر المؤكد حتى الآن هو تدني مستوى خريجي الدبلوم العام في المستوى التحصيلي والثقافي؛ وهذا بدوره أثّر حتى على مستوى خريجي الجامعات، وقد يعود السبب إلى ضعف في المناهج وضعف في مستوى المدرسين التحصيلي والثقافي، وإلى نقطة هامة وهي غياب الرؤية وغياب الهدف لدى الحكومة ولدى الهيئة التدريسية والطلبة، إذ صار اهتمام الطلبة منصبّاً فقط على الإجازات، في وقت غابت فيه هيبة المدرسين أمام التلاميذ بسبب بعض القوانين، ممّا أدى ببعض المدرسين أن يهتموا فقط بالراتب الذي يستلمونه نهاية الشهر.

إننا نحتاج إلى إعادة بناء التعليم من الصفر، فما نُشر في الخارج عن مستوى التعليم في السلطنة قبل سنوات ينذر بالخطر، إذ تذيّلت السلطنة مع دول عربية أخرى التصنيف العالمي لأداء طلبة الصف الرابع في العلوم والرياضيات والقراءة، وأوضحت دراستان تدعمهما كلية «بوسطن» الأميركية أنّ دول آسيا الغنية نسبياً ومنها كوريا الجنوبية وسنغافورة وهونغ كونغ تصدرت ترتيب التحصيل العلمي للطلاب على المستوى الدولي، وهي النتيجة التي قال الباحثون إنها ترجع إلى التزام مجتمعي قوي بالتعليم الابتدائي، وتصدرت الدول نفسها الأداء في الرياضيات والعلوم وتقدمت في القراءة.

بالرغم من أنّ التعليم الحديث بدأ في عُمان وانتشر مع بداية العهد الجديد، إلا أنّ الجيل الذي درس في فترة السبعينات والثمانينات كان جيلاً متعلماً تعليماً جيداً، لوجود كوكبة كبيرة من المدرسين العرب أصحاب الخبرات الطويلة، ممن كانوا يؤمنون برسالة التعليم قبل أن تشملهم سياسة التعمين التي أدت إلى خسارة بعض الكوادر العربية المؤهلة تأهيلاً جيداً، وأيضاً بوجود مناهج دراسية قوية

شارك في إعدادها مختصون في المجال التربوي، ولكن الأهم من ذلك هو وجود خطة وهدف ودراسة، وأريد أن أصل إلى أنّ التعليم رغم تنوعه وزيادة عدد المدارس والطلبة والمدرسين، ورغم وجود التكنولوجيا الحديثة، إلا أنه تراجع كثيراً عن ذي قبل، ولم يقتصر الأمر على عدم القدرة على القراءة فقط، بل اختفت معاني الوطنية من الجيل الجديد، وأصبح هم الكلّ هو الأخذ من الدولة فقط دون التفكير في مبدأ العطاء، وكانت النتيجة كما هو معروف لدى الكلّ.

الآن نبحث عن أبسط الأشياء وهي إلغاء أمية الطالب العماني، لأننا إذا أردنا أن نبني جيلاً جديداً مسلحاً بالثقافة والعلم على مدى الـ ٥٠ أو ٦٠ عاماً القادمة فيجب أن نعمل من الآن، وكفانا الندوات الكثيرة والمبالغ الضخمة التي تصرف على هذه الندوات بدون طائل؛ فالمسألة تحتاج إلى وقفة جادة من الجميع لأنّ هذا هو مستقبل البلد ومستقبل الأجيال؛ والربح الحقيقي هو في الاستثمار في التعليم. وليكن شعارنا مثل شعار كوريا الجنوبية التي حققت المراكز الأولى في التحصيل التعليمي، إذ يقول الشعار: «ليس لدينا سوى الإنسان والمدرسة، والمدرسةُ هي الاستثمار الأول الذي ينتج لنا الثروة البشرية، وهذه الثروة هي المسؤولة عن تحقيق معجزة التنمية والتقدم».